**المحاضرة التاسعة: الإبداع والإيديولوجيا**

**مراجع المحاضرة:**

* عبد الله إبراهيم: ما هي الإيديولوجيا.
* عبد الله العروي: مفهوم الإيديولوجيا.
* عمار علي حسن: الإيديولوجيا.
* عمار بلحسن: الأدب والإيديولوجيا.
* محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي:
* كمال رايس: الإيديولوجيا والرواية. إيقاعات معرفية للمفهوم والعلاقة.
* بن عون الزبير: ماهية الإيديولوجيا.
* عموري السعيد: الإيديولوجيا/ الخطاب/ النص – نحو مقاربة مفاهيمية، مجلة الأثرع18، جوان 2013.
* حسيبة ساكر: علاقة الأدب بالإيديولوجيا، مجلة إشكالات.

**تمهيد:** إنّ محاولة تقديم تعريف للإيديولوجيا، لا يمكن أن يتّسع لكلّ ما قدّمه الفلاسفة والمفكرون عن المصطلح تعريفا واشتغالا. ويعدّ مصطلح الإيديولوجيا واحدا من المصطلحات واسعة الاستعمال

ظهر استخدام مصطلح "ايديولوجيا" لأوّل مرّة بعيد الثورة الفرنسيّة مع الفيلسوف وعالم الاقتصاد الفرنسي دستوت دي تراسي (Destutt De Tracy) في كتابه "مشروع مبادئ ايديولوجيا" (Projet d’éléments d’idéologie)  وحملت معنى علم الأفكار للتعبير عن محاولة التحليل التجريبي للعقل البشري وقد أقرّ دي تراسي بأنّ مشروعه امتداد لأعمال جون لوك وخاصة كوندياك (Condillac) الذي اعتبر الإحساس أصل جميع الأفكار.وكان الهدف منه إنشاء علم أفكار على أسس ديكارتيّة يكون دعامة فلسفيّة لسائر العلوم ويرشد إلى مقوّمات التفكير السليم عبر إصلاح المنطق وتخليص الفرد والمجتمع عامة من الأفكار البالية التي قد تحول دونهما وإظهار الحقيقة الواقعيّة في وجهها الصحيح. وهو المعنى الذي اشتغل عليه عدد من فلاسفة التنوير بفرنسا في أواخر القرن الثامن عشر وعرفوا من خلاله بالايديولوجيّين وأكّد هؤلاء الترابط المتين بين الأفكار والواقع التجريبي.

ثم صرف نابليون بونابرت هذا المصطلح لمهاجمة المدافعين عن قيم التنوير والديمقراطيّة فأصبح من ثمّ محمّلا بدلالات سلبيّة، وينطوي على قدر من السخرية والتحقير إذ انحسرت دلالته لتعني مجمل الأفكار الجمهوريّة أو الثوريّة المعارضة لسياسة بونابرت.

ومع انتقال المصطلح إلى الفلسفة الماركسيّة اكتسب دلالات أخرى فأصبح يطلق على ضربين من الوعي: أولهما وعي زائف أو معرفة شوهاء غير مطابقة للواقع تصوغها مصالح الطبقة الاقتصادية الحاكمة وتحكمها، والثانية منظومة خاصة من الأفكار المعبّرة عن ظروف طبقة اجتماعيّة محدّدة ومصالحها المادية وتوفّر من ثمّ صورة منقوصة مجتزأة عن العالم.

ولم يتوقف هذا المفهوم عن التطوّر واكتساب معان متجدّدة أكّدت أهمّيّته خاصة مع لويس ألتوسير الذي عرّف الايديولوجيا بكونها "أنظمة التمثيل التي تعيش فيها الناس علاقتها بالشروط الفعليّة لحياتها" (غروسبيرغ، 2010، ص136) ومن ثمّ تصبح وسيلة لا غنى عنها للإنسان في إنتاج تجربته الحياتيّة.

والايديولوجيا عامة منظومة متّسقة من الأفكار والمبادئ والتصوّرات التي يعتقد أصحابها في كونها الحقّ وهي التي تحكم رؤية الفرد والمجموعة إلى الطبيعة والمجتمع والإنسان والكون.. وتوجّه سلوكهما وعلاقاتهما. ولكنّ استخدام مفهوم الايديولوجيا الشائع كاد ينحصر في تقديمه مقابلا للـ"واقع" و"العقل" و"الفلسفة" وحتّى "الحقيقة".

هي أيضا نسق ( له منطقه ودقته الخاصتين ) من التمثلات ( من صور وأساطير وأفكار وتصورات حسب الأحوال ) يتمتع داخل مجتمع ما بوجود ودور تاريخيين . محمد سبيلا، عبد السلام بنعبد العالي: الإيديولوجيا، ص8.

علاقة الأدب بالإيديولوجيا: يستند الأدب في كل عصر إلى إيديولوجيا تمكنه من تحقيق ذاته، ويمكنها من فرض سيطرتها على المجتمع وأفراده. من هنا يتّضح أنّ علاقة الأدب بالإيديولوجيا علاقة وطيدة ومعقدة في آن.

وقد كان الفكر المثالي يتشدّق بأن الأدب ممارسة إبداعية فردية صرفة من صنع الذات المبدعة وحدها، وأن العمل الأدبي كتابة خارج التاريخ، وخارج العلاقات الاجتماعية وسيرورتها.

إنّ عزل الأدب عن سياقه السوسيو تاريخي يعدّ انزلاقا خطيرا، لأنه يجعل الأدب ينشأ من العدم، وهذا غير معقول، لأن الذات المبدعة تتأثر وتؤثر بمحيطها.

وقد تراجع الموقف المثالي بظهور المادية التاريخية، وتراجعت معها كلمة خلق بوصفها مفهوما ميتافيزيقيا، غير قادر على تحليل طبيعة الممارسة الأدبية، وإدراك العلاقات المعقدة التي تربط الأدب بالإيديولوجيا، ومن ثم بالعلاقات الاجتماعية وبنيتها.

وحسب هذا المفهوم يصبح الأدب شكلا من أشكال الإيديولوجيا.

ولفهم علاقة الأدب بالإيديولوجيا، يقترح عمار بلحسن تحليل هذه العلاقة وفق الأطروحات الثلاث التالية:

العمل الأدبي هو كتابة تنظم الإيديولوجيا وتبنيها؛ أي تمنحها بنية وشكلا ينتج دلالات جديدة متميزة، تختلف في كل عمل، وتبدو جديدة وأصلية، بحيث إن كل عمل يحمل تجربته الخاصة ودلالاته المتميزة، أي شكله ومضمونه.

* ( من مقال حسيبة ساكر: علاقة الأدب بالإيديولوجيا، مجلة إشكالات.)